

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

التقديم في آتي السرقة والزنى.

The linguistic miracle in the qur'an
The advance in adultry and theft verseفاصولي صافية¹، لعلاوي فتيحة²¹ جامعة أبو القاسم سعد الله بوزريعة (الجزائر2).

anashana2014@gmail.com

² جامعة أبو القاسم سعد الله بوزريعة (الجزائر2).

lalaouifatiha@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2022/01/23

تاريخ القبول: 2022/01/12

تاريخ الاستلام: 2021/12/06

ملخص:

حاولنا في هذا المقال أن نوضح أن الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم متشعب الفروع، ومتعدد النواحي، وهو ما جعله مجالا مفتوحا للدراسات اللغوية، وأبرز مظاهر إعجازه التي لا تعد ولا تحصى، حسن النظم، وخصوصا في دقة ترتيب الألفاظ والمعاني في ملّ جملة من جملة، أضف إلى هذا أن التقديم والتأخير وضع وضعا دقيقا محكما، فحاولنا في هذا السياق أن نبين وجهها من أوجه إعجازه الكثيرة، بضرب مثال عن بلاغة تقديم كلمة (الزانية) في آية الزنى، وعكس الترتيب في آية السرقة، بتقديم (السارق) على (السارقة)، وتأثيره في المعنى.

كلمات مفتاحية: القرآن الكريم، التقديم والتأخير، الإعجاز اللغوي.

Abstract:

We have attempted from this article to clarify, that the linguistic miracle in the qur'an has multiple areas and diferents aspects, which made it an open ground fort linguistic studies,one of the most important miracle which can neither counted or desctibed, the sound arrangement in syntax, advancing and delay

vocabulary that has been established in a pricised and firm manner. Hence we have tried or attempted to highlight one of its miracles. For instance, proceeding the Zania “the afuluoos woman” in the verse of robbing and its effect on the meaning.

Keywords: Qur'an- The Linguistic Miracle, advancing and delay.

المؤلف المرسل: صافية فاصولي،

1. مقدمة:

نزل القرآن الكريم ليخرج البشرية من ظلام الشّرك إلى نور التّوحيد، وليكون آية للنّاس، وحجّة تعجز أرباب الكفر الدّين أنونا البلاغة والفصاحة، فذهلوا أمام إعجاز كلماته وبلاغتها، وحسن بيانه ونظمه، فدخلوا في دين الله أفواجا بعد أن أسر قلوبهم بألفاظه قبل الغوص في معانيه، وتعلّقوا بتلاوته أثناء الليل وأطراف النّهار، واعتبروا هذا الانجذاب إلى كلام الله هو سرّ من أسرارهِ الكثيرة، وهذا ما جعل أهل العلم يبحثون عن مصادر هذا الإعجاز الرّباني الخالد في القرآن الكريم الّذي يطالعنا بأسرار جديدة في كلّ دراسة حديثة.

2. مظاهر الإعجاز في القرآن:

تطالعنا الدّراسات اللّغوية والبحوث العلمية منذ زمن -ووصولاً إلى يومنا هذا- باكتشافات جديدة، كان للقرآن الكريم السّبق إلّهما منذ عصور خلت، "فالعلم الحديث وما يحقّقه من تقدّم مهما بلغت درجة دقّته، فهو لا يخرج عن كونه كشف عن بعض حقائق الوجود، وأسارهِ الكبيرة" (رحماني، 2013، ص95)، الّتي ذكرها الله في كتابهِ الكريم بصورة مباشرة أو غير مباشرة، وهذه الاكتشافات ليست سوى تأكيد لما جاء فيه، إثبات على صدقه.

وجاءت هذه الاكتشافات الجديدة القائمة على أحدث وسائل التكنولوجيا المتنتوّرة مؤكّدة ومرسّخة لمسألة إعجاز القرآن الكريم في جميع الجوانب والميادين

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم التقديم في آيتي الزنى والسرقه

من علوم فيزيائية، وطبّ، وفلك، وعلوم دقيقة، وعلوم الطّبيعة والحيوانات والحياة والأحياء، وغيرها من العلوم الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى، وذلك ليزداد المؤمنون إيماناً به، ويعود المشكّكون فيه إلى رشدهم، ويأتمروا بأمره ووصاياه علّهم يدركوا سبل النّجاة والفلاح.

وقد ظلّ القرآن الكريم ولا يزال المصدر الأوّل للتّشريع الدّيني، "فهو معجزة الإسلام الخالدة إلى يوم الدّين، ورسالة الله إلى الإنسانية كافة" (رحماني، 2013، ص23)، وهو السّبيل إلى هداية النّاس من ظلمات الجهل وغياب الوثنية والعبودية إلى نور اليقين والرّشد وقبلهما التّوحيد والبعد عن الشرك، بعد أن ظلّوا يتخبّطون في أغوار جهلهم لعصور خلت حجبت عنهم رؤية الحقّ، فهو "كلام الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، المتعبّد بتلاوته" (القطنان، 1993، ص17)، عن طريق الوحي الأمين جبريل عليه السّلام.

وقد حفظ الله عزّ وجلّ القرآن الكريم من كلّ محاولات تدنيسه تزيف آياته أو التّغيير فيه، وذلك "ليكون هادياً للنّاس ونذيراً ودستوراً دائماً لهم، يعتمدون عليه في أداء عباداتهم، كما وعد جلّ جلاله، بصونه من النّسيان والتّحريف لقوله : {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (سورة الحجر: الآية 9)" (الصّغير، 1999، ص15)، فلا نجد فيه تناقض بين آياته، كما حدث لكتب الله من قبل التّوراة والإنجيل بعد أن غيّر فيها اليهود والنّصارى، وحرّفوها وبدّلوا فيها بما يخدم مصالحهم وأهواءهم، فغاب فيهما النّص الأصلي، وغلب عليهما كلام الرّهبان والقساوسة المؤلّف من عند أنفسهم، والملفّق تلفيقاً، ما جعل التّناقض يطغى عليهما بما لا يتقبّله عقل البشر.

3. الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم

وقد أنزل القرآن الكريم في أمة متكلمة، فأعجزها بأسلوبه البليغ، وخسرت رهان التّحدّي الذّب فرضه عليها، فقد عرفت بين سائر الأقوام ببلاغتها وفصاحتها

شعرائها، فهي أمة تعتني بلغتها أشدّ عناية، تجيد فنون الكلام والخطاب، ولكنها بالمقابل وثنية بعيدة كلّ البعد عن التّوحيد، لهذا بدأ القرآن الكريم في أوائل نزوله "يخاطب أول ما يخاطب الوثنيين الغافلين عن الله الجاحدين لوحديته" (الغزالي، 2008، ص91)، الذين أعمت الأصنام قلوبهم ورفضوا هذا الدّين المنزل على خير العباد، وراحوا " يقاومون بعنف كلّ صيحة للتحرّر العقلي" (الغزالي، 2008، ص91)، فكان من الصّعب إقناعهم إلّا بما يعجزهم، وباعتبار أنّهم أمة أوتيت الفصاحة والبيان وحسن الكلام، فقد واجههم بكلام ذهّلوا أمام دقّة نسجه، وبلاغة كلماته، وإعجاز ألفاظه، "إذ كانت لغته لا أفصح منها، ولا أبلغ، ولا أسلم، بل لغته أعجزت العرب أمة الفصاحة والبلاغة، أن تأتي بمثله أو بسورة واحدة مثله" (الصّافي، 1995، ص7)، فتحدّاهم بكلام يماثله، فوقفوا عاجزين أمام هذا التّحدّي، وراحوا يعلّلون ذلك بكونه سحر أو كلام مجنون، ولا ندري متى أوتي المجنون تلك الفصاحة المعجزة!؟.

فهذا النّص الإلهي المقدّس أعجز وأعيا حتّى أصحاب السّليقة وفحول اللّغة كافرهم ومؤمنهم، وأرباب البيان، فما هو ذا الشّاعر الجاهلي المعروف الوليد بن المغيرة شاعر ممّن أوتوا البيان والبلاغة، يعترف بإعجاز القرآن الكريم، مبديا انبهاره به في عبارة أظهر فيها علو مكانة القرآن الكريم، وقد خلّدها التّاريخ كدليل عليهم في قوله: "والله إنّ فيه لحلاوة، وإنّ عليه طلاوة، وإنّ أعلاه لمورق، وإنّ أسفله لمغدق، وإنّّه يعلو ولا يعلى عليه" (لاشين، 1980، ص13)، ناطقا ببيان بلاغته، وسموّ معانيه إلى أرقّ الدّرجات، ما عجز قلبه عن اتّباعه والإيمان به تكبّرا وتعجرفا، وهيمات له أن يؤمن ولو تحدّى، وقد سبق فيه القول بأنّه من الكافرين.

وإذا كان هذا رأي الشّاعر المعروف بفصاحته بين قومه الوليد بن المغيرة - رغم كفره - فلا يدهشنا من تملّكهم القرآن الكريم وأسره في ثناياه وغاص به في مكنوناته، وسحرهم بمعانيه، حتّى راحوا يدخلون في دين الله أفواجا، ويدودون

عنه بأرواحهم، ويصونونه في قلوبهم، ويهتمون بفهم معانيه وتطبيق أحكامه ووصاياه، وينشرونه في ربوع الأرض مشارقها ومغاربها، لإعلاء كلمة الله فيها، فلم تستطع محاولات تدنيسه من الوصول إليه، فهو محفوظ من عند الله سبحانه وتعالى، وهو خير الحافظين، فقد شرف الله به الإنسان دون سائر مخلوقاته، فهو "كرامة أكرم الله بها على البشر، فقد ورد أن الملائكة -على علو مكانتهم عند الله سبحانه وتعالى- لم يعطوا ذلك، وأنها حريصة لذلك على استماعه من الإنسان" (السيوطي، 2008، ص13)، وهذا تشريف للإنسان على غيره دون سائر المخلوقات الأخرى مهما بلغت مكانتها من القداسة والعظمة عند الله تعالى.

والقرآن الكريم معجز من جميع النواحي، وهذا الإعجاز لا تحصره المؤلفات الضخمة ولا المجلدات التي كتبت فيه رغم كثرتها، لأن إعجازه لا يتوقف إلى يوم يرث الله الأرض ومن عليها، فهي كالذي يغترف غرفة من بحر، فلا ينقص منه شيئا، غير أننا سنركز هنا على إعجازه اللغوي، بما أنه أسمى النصوص فصاحة وبلاغة، معجز بألفاظه ومعانيه، وهذا الإعجاز هو ما جعله أكثر النصوص تعقيدا، واختلافا في المعاني بين أهل العلم والتفسير والنحاة، وهو ما يفسر كثرة كتب الشرح والتفسير، فإعجازه اللغوي أكبر من أن يحصر في كتب -ولو كانت كثيرة-، لأن معانيه مفتوحة لا تربطها قيود، ولا تكفيها أبحر من المداد، لما فيه من حسن التركيب وروعة في الإبداع، جعلت باب المعنى والتأويل فيه مفتوحا على مصراعيه، يقول الله تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا} [الكهف: 109]، فكلما قرأ الإنسان منه آية ازداد تعظيما له لجلاء ورفعة كلماته، وسمو معانيه، ودقة ألفاظه.

وقد حاول الكثير من أهل اللغة وصف هذا الإعجاز في مؤلفاتهم، ومن أبرز ذلك الدكتور فاضل صالح السمرائي الذي وصف إعجازه ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فجاء وصفه بمنتهى الدقة والجمال، فاختصر وأجاد، بقوله: "إن إعجاز

القرآن الكريم أمر متعدّد النّواحي متشعّب الاتجاهات، ومن المتعذّر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآني شخص واحد ولا حتّى جماعة في زمن ما مهما كانت سعة علمهم وإطلاّعهم وتعدّد اختصاصاتهم، إنّما هم يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآن الكريم في نواح متعدّدة حتّى زمانهم هم، ويبقى القرآن مفتوحا للنّظر، لمن يأتي بعدنا في المستقبل ولما يجدّ من جديد، وسيجد فيه أجيال المستقبل من ملامح الإعجاز وإشاراته ما لم تخطر لنا على بال" (السّامرائي، 2003، ص5)، فقد جعل الله النّص القرآني آية للنّاس، فهو صالح لكلّ زمان من الأزمنة وكلّ مكان من الأمصار، والعلم في تطوّر مستمرّ يكشف الإعجاز العلمي الذي ورد فيه، والذي يستمدّ منه الإعجاز اللّغوي في كثير من الأحيان لتفسير آياته.

والعرب اعتنت بكلامها حقّ عناية، وطاوعتهم الفصاحة إلى أعلى درجات البيان، رغم ذلك عجزوا أمام أساليب القرآن السّاحرة، فما استطاعوا الإتيان بمثله، بعد أن "تحدّاهم إلى أن يأتوا بمثله وقرّعهم على ترك الإتيان به، طول السّنين، فلم يأتوا بذلك" (الباقلاّني، 1971، ص17)، وهذا التّحدّي ظهر في عدّة آيات من القرآن الكريم، منها قوله تعالى: (قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [سورة الإسراء: 88]، والذين حاولوا ذلك عادوا على أعقابهم خاسرين منكسرين بجروّ أذيال الخيبة والانكسار، تملأ وجوههم الذلّة والحسرة، وما أتوا إلّا بكلام فارغ مسجوع لا معنى له، "فجعل عجزهم عن الإتيان بمثله دليلا على أنّه كلام من الله" (الباقلاّني، 1971، ص17)، ولو اجتمعت كلّ المخلوقات فلن يستطيعوا إلى ذلك سبيلا، وقد سبق القول في ذلك في كتاب الله نفسه.

ويظهر إعجاز القرآن في "كون ألفاظ الكلام ملائمة للمعنى المراد، فإن كان فخما كانت ألفاظه فخمة، أو جزلا فجزلة، أو غريبا فغريبة، أو متداولاً فمتداولة" (السيوطي، 2008، ص593)، فهو دقيق التّراكيب، ومتناسق العبارات، جميل

الأسلوب ومصيب المعني، "فاقتضى حسن الوضع في النظم أن تجاوز كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة، توخيا لحسن الجوار، ورعاية في ائتلاف المعاني بالألفاظ، ولتتعادل الألفاظ في الوضع وتناسب في النظم" (السيوطي، 2008، ص593)، فكلّ هذا جعل منه كلاما معجزا بامتياز.

كما جاءت ألفاظ القرآن عذبة مهذّبة تأسر الرّوح والقلب والوجدان، وهو ما جعل النّاس ينجذبون إليه، "فليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرّف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، وإنّما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها الاختلال والاختلاف، والتكلف والتعسف" (الباقلائي، 1971، ص17)، ولعلّ ما فعله الباقلائي في كتابه -إعجاز القرآن- بشعراء العرب الفحول في رصد أخطائهم، وتبيين غلطهم بدءا بامرئ القيس الذي كانوا يرونه أشعر الشعراء، لخير دليل على ضعف قدرة الإنسان أمام هذا الكلام المقدّس، فامرؤ القيس الذي عدّ من فحول الشعراء وأجودهم شعرا باعتراف الشعراء أنفسهم، وجد الباقلائي أخطاء كثيرة في أشعاره.

وإعجازه لا يقف أمام هذا الحدّ، بل يتعداه كثيرا، فحتّى "ألفاظ ذمّ الكافرين منزّهة عمّا يقبّح في الهجاء من الفحش، وسائر هجاء القرآن كذلك" (السيوطي، 2008، ص225)، فقد وصلنا هجاء الشعراء العرب بعضهم بعضا على درجة من التدبّي اللفظي والفحش المغلظ، وفساد العبارات لسوء معانيها، بل كلّ واحد منهم يحاول الوصول بصاحبه إلى درجات فرار النّفس البشريّة منه، بينما القرآن الكريم مهذّب في ألفاظه حتّى مع المشركين الذين يهجون الرّسول صلّى الله عليه والدين الإسلامي بنوع من الرّعونة في الألفاظ، ويخطّهم بأدب.

ومن وسائل إعجازه اللّغوي الكثيرة أيضا، حسن استخدام الفواصل، ويرى السيوطي-رحمه الله- أنّ هذه "الفواصل تقع عند الاستراحة بالخطاب، لتحسين الكلام بها، وهي الطريق التي يبين القرآن بها سائر الكلام، وتسمّى فواصل، لأنّه ينفصل عند الكلامان" (السيوطي، 2008، ص610)، فنظم الكلام بتلك الطّريقة لم يألّفه العرب، فإذا عدّوه شعرا خانتهم الأوزان، وإذا عدّوه نثرا وجدوا فيه فواصل مسجوعة متّسقة ومنسجمة مع ما يليها ويسبقها، فهذا غيض من فيض، وما خفي من إعجازه أكبر من أن نحيط به.

وأما الذين يقولون "إنّ القرآن غير معجز، لا بقوة القدر ولا بضعف القدرة، وأنّ النّاس بزعمهم قادرون على مثل القرآن فصاحة ونظما وبلاغة، وهو جنون بلا ريب ليس أقبح منه إلّا جنون الحسينية أصحاب الحسين بن القاسم الذين يزعمون أنّ كتبهم وكلامهم أبلغ وأهدى وأبين من القرآن" (الرافعي، 2008، ص126)، وإن كانت العرب الأولى قد عُرّفت بفصاحتها وحسن كلام شعرائها، وقد ذهلت ببلاغة القرآن، فلا ينكر إعجازه إلّا كلّ كفور جاهل عنيد.

4. إعجاز التّقديم والتّأخير في القرآن

والقرآن الكريم كلّ معجز، ولكن للنّظم أيضا حظّه من هذا الإعجاز، "فالحرف الواحد من القرآن معجز في موضعه، لأنّه يمسك الكلمة التي هو فيها ليمسك بها الآية والآيات الكثيرة، وهذا هو السّرّ في إعجاز جملته إعجازا أبديا، فهو أمر فوق الطبيعة الإنسانية، فوق ما يتسبّب إليه الإنسان، وما أنزله إلّا الذي يعلم السّرّ في السّموات والأرض" (الرافعي، 2008، ص175)، فالحروف في الكلمة متناسقة ومتّفقة ومنّتقية، ولا نتكلم عن الإعجاز اللّغوي إلّا ونتكلم عن حسن النّظم، ومن أبرز وسائل النّظم في القرآن الكريم التّقديم والتّأخير، الذين فيهما أسمى معاني البلاغة والبيان والإعجاز.

فالتقديم والتأخير قد يكون في الحروف أو الكلمات أو الجمل، من ذلك مثلا تقديم المفعول به على الفاعل، أو تقديم المبتدأ على الخبر أو تقديم الجملة أو شبه الجملة عن موضعها، وهذا التقديم في المواضع في القرآن الكريم مدروس بدراسة محكمة فائقة الدقة، وقد وضع مقصودا لأغراض معينة، فمنه ما يكون للفت النظر إلى معنى ما أو تأكيده، والتّركيز عليه، "أو للاهتمام والعناية بالمقدم" (السامرائي، 2000، ص175)، حسب ما يقتضيه السياق الذي قيل فيه ذلك الكلام، ومنه ما خفيت مقاصده على الإنسان فهي مجال مفتوح للبحث فيه، "وقد بلغ القرآن الكريم في هذا الفنّ كما في غيره الدّروة في وضع الكلمات الوضع الذي تستحقّه في التعبير حيث تستقرّ في مكانها المناسب" (السامرائي، 2002، ص17)، فألفاظ القرآن الكريم موضوعة في أماكنها وضعا دقيقا، لهذا فالتقديم فيها يكون من قبل الفصاحة والبلاغة، ولنا مثال عن ذلك في آية السّرقه وآية الزّنى.

ففي قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (سورة المائدة: الآية 38)، وكذلك في قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ} (سورة النّور: الآية 2)، نلاحظ في الآيتين عكس المعطوف عليه، إذ قدّم في الآية الأولى المفرد المذكّر (السّارق)، وعطف عليها المفرد المؤنث (السّارقة)، أمّا الآية الأخرى فنجد العكس، حيث قدّم المفرد المؤنث (الزّانية) على المفرد المذكّر (الزّاني)، وهنا يقف المتدبّر أمام الآيتين متسائلا لماذا قدّمت المرأة في الآية الثانية؟ خصوصا وأنّ القرآن دائما يبدأ في خطابه ببدء المذكّر كما هو حال الآية الأولى ثم الانتقال إلى المؤنث، فما السرّ في تقديم المؤنث في الآية الثانية؟

وقد أشار الدكتور فاضل صالح السامرائي في إحدى محاضراته إلى الإعجاز اللغوي في الآيتين، حيث إنه من بلاغة التقديم والتأخير في القرآن أنه "قد يكون الكلام بالعكس فيتدرج من الكثرة إلى القلة، ومن هذا النوع من التقديم قوله تعالى: {وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا}، قَدَّمَ السَّارِقَ على السَّارِقَةِ لَأَنَّ السَّرْقَةَ في الذَّكُورِ أَكْثَرُ، وَقَدَّمَ الزَّانِيَةَ على الزَّانِي في قوله تعالى: {الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ}، لَأَنَّ الزَّانِيَةَ فِيهِمْ أَكْثَرُ، أَلَا تَرَى أَنَّ قِسْمًا مِنَ النِّسَاءِ يَحْتَرِفْنَ هَذِهِ الْفِعْلَةَ الْفَاحِشَةَ؟" (السامرائي، 2002، ص21)، ومن هنا نجد أنه ربط التقديم بالكثرة في الفعل، فأَيُّ الجنسين أَكْثَرُ قياما بالفعل تصدّر كلام الله في خطابه، فلمّا كانت السَّرْقَةُ منتشرة في جنس الرِّجَالِ وغالبه عليهم أَكْثَرُ مِنَ النِّسَاءِ سُبِقَتِ الْآيَةُ بِهِمْ، وَلَمَّا كَانَ الزَّانِي غَالِبًا فِي النِّسَاءِ وَمُنْتَشِرًا فِيهِمْ أَكْثَرُ مِنَ الرِّجَالِ سُبِقَتِ الْآيَةُ بِالْفَاعِلَةِ مِنَ النِّسَاءِ.

أضف إلى ذلك أَنَّ السَّرْقَةَ أَغْلِبُهَا تَكُونُ فِي أَوْقَاتِ الْوَحْشَةِ (كَاللَّيْلِ وَالْقِيَصِ) وَالْمَرْأَةُ بِفَطَرَتِهَا ضَعِيفَةٌ يَتَمَلَّكُهَا الْخَوْفُ، وَالرَّجُلُ أَكْثَرُ إِقْدَامًا مِنْهَا، فَتَقْوَدُهُ جَرَأَتُهُ إِلَى فِعْلِ السَّرْقَةِ، وَلِهَذَا تَنْتَشِرُ فِي الذَّكُورِ أَكْثَرُ مِنَ الْإِنَاثِ، فَقُدِّمَ الذَّكَرُ عَلَى الْأُنْثَى لانتشارها فيهم أَكْثَرُ مِنَ النِّسَاءِ، وَالسَّرْقَةُ فِعْلٌ مُنْفَرِدٌ لَا يَتَطَلَّبُ اشْتِرَاكَ الْجَنْسَيْنِ فِيهِ، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِلزَّانِي فَقَدْ قَدِّمَتِ الْمَرْأَةُ لَأَنَّ الزَّانِي لَا تَكُونُ إِلَّا بِوُجُودِهَا، فَلَا تَحْصُلُ مِنْ طَرَفِ الذَّكَرِ وَحْدَهُ بَلْ مِنْ اشْتِرَاكِ الْجَنْسَيْنِ، وَلَوْ امْتَنَعَتِ الْمَرْأَةُ لَمَّا وَقَعَ الزَّانِي، "وَالزَّانِي مِنَ الْمَرْأَةِ تَمَكِّيْنَهَا الرَّجُلُ أَنْ يَزْنِيَ بِهَا" (السايس، 201، ص106)، كَمَا أَنَّهَا أَصْلُ الْإِغْرَاءِ، فَمِنْ هُنَا كَانَ الْخُطَابُ مُوجَّهًا لِلْمَرْأَةِ أَوَّلًا حَتَّى تَحْصَنَ نَفْسَهَا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْإِثْمِ وَالْمَعْصِيَةِ.

وهذا أيضا ما ذهب إليه فضيلة الشيخ محمد علي السّايس في بيان الحكمة من تقديم الله للسَّارِقَ على السَّارِقَةِ، والزَّانِيَةَ على الزَّانِي، في قوله: "إِنَّ الزَّانِيَةَ مِنَ الْمَرْأَةِ أَقْبَحُ، فَإِنَّهُ يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ تَلْطِيفُ فِرَاشِ الرَّجُلِ وَفَسَادُ الْأَنْسَابِ وَعَارُ

على العشيّرة أشدّ وألزم، والفضيحة بالحمل منه أظهر وأدوم، فلهذا كان تقديمها على الرجل أهمّ، وأمّا السرقه فالغالب وقوعها من الرجال وهم عليها أجراً من النساء وأجلد وأخطر فقدّموا عليهنّ لذلك" (السايس، 2001، ص108)، فالله عزوجلّ ينذر الزانية بالعقاب الشّديد رأفة ورحمة بها من تبعات ما بعد الزنى التي تتحمّلها وحدها أكثر من الرجل، حتّى ترتدع عنه قبل أن تقدم عليه أو تقع فيه، فلا يفيدها ساعتها الندم، بوقوعها في المحضور.

ويهرب الله الزانية بعقابه حتّى لا تخوّل لها نفسها ذلك الفعل الشنيع إذا تذكّرت العقاب، وخصوصاً إذا حصل الحمل ففضيحتها أكبر، ومصيبتها أفدح، وعناؤها أشقّ، أمام تأنيب الضمير، ونظرة المجتمع المهينة والمخزية والمذلة لها، فمريم عليها السلام المرأة الصالحة العفيفة الطاهرة التي نشأت في بيت من بيوت الله عابدة لله ناسكة، اتّهمت في عرضها بعد حملها بعيسى عليه السلام، وتلقّت كلام القوم الجارح الذي زادها ألماً حتّى تمنّت الموت بعد اتّهامها في فعلة لم تفعلها، رغم اعترافهم بعقبتها وصلاح أهلها في قوله تعالى: {فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (27) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا (28)}، وهذا مجرّد اتّهام باطل رميت به ولا أساس له من الصّحّة، فكيف حال من قامت به فعلاً، وثبتت عليها الفعل من الخزي والعار؟

وأما الرجل الزاني فقد يتستّر على نفسه وإن كان آثماً عند الله، لأنّ الزنى لا تعاقب عليه المرأة المرأة فقط، بل يشتركان في نفس العقاب، فلا يظهر فعله للناس كونه لا يحبل مثل المرأة، وحتّى إن ظهر جرمه في ذلك فإنّه عرضة للنّسيان مع توالي الأيام، على عكس الرجل السّارق الذي يبقى جرمه يلاحقه، حيث لا يصبح مؤمناً عند القوم مخافة تكرار الفعل، ولا تتجدّد فيه الثّقة مخافة تكرار الفعل ثانية، ومن هنا كانت مصيبته أفدح.

والَّذي أراه كذلك في إعجاز هاتين الآيتين اللغوي -والله أعلم- أن الله بدأ الآيتين حسب درجة تحمّل كلّ من الجنسين للعقاب، فبدأ بالزّانية لأنّ عقوبة الجلد أشدّ على المرأة كونها أضعف جسدا وأقلّ تحمّلا من الرّجل رغم تساوي العقوبة، فبدأ بها لإقناعها بقوة العقاب عليها حتّى تخاف وترتدع، وأمّا البدء بالسّارق فقطع اليد في الرّجل أظهر وأفضح، خصوصا مع كونه المسؤول عن العمل خارج المنزل، ومسؤوليته في إعالة الأسرة، كون المرأة تستتر بحجابها مع قلّة خروجها من بيتها، فكان ذلك ردعا وتذكيرا له للابتعاد عن السّرقة حتّى لا يقع في عقيباتها.

وكذلك جاء في حاشية ابن المنير على الكشاف في تفسير الإعجاز اللّغوي في تقديم الزّانية على الزّاني قوله: "وقدّم الزّانية على الزّاني والسبب فيه الكلام الأوّل في حكم الزّنى والأصل فيه المرأة لما يبدو من الإيماض والإطماع والكلام، لأنّ مفسدته تتحقّق بالإضافة إليها" (السامرائي، 2002، ص21)، فهو يرى بأنّ المرأة هي المبادرة لتلك الفعلّة الفاحشة المخزيّة من خلال استمالة الرّجل بتصرّفاتهما وخضوعها في القول بإغرائه، ودفعه للحرام، مع كون الرّجل آثم لأنّه مشارك في الفعل، ولكن يندفع إليه بفعل الإغراء الذي تكون بدايته منها.

ونجد أيضا تأويلا آخر من علماء التّفسير والبيان، يجعل سبب تقديم الزّانية على الزّاني "لأنّ داعيتها أقوى لقوة شهوتها ونقصان عقلها، ولأنّ زناها أفحش وأكثر عارا، وللعقوق بولد الزّنى وحال النّساء الحجة والصّيانة، وقد سبقت تلك الآية لعقوبتهما على ما جنيا والمرأة على المادّة التي منها نشأت الجناية، فإنّها لو لم تطمع الرّجل ولم تربض له، ولم تمكّنه لم يطمع ولم يتمكّن، فلما كانت أصلا وأولا في ذلك بُدئ بذكرها، وأمّا الثّانية فمسوقة لذكر النّكاح والرّجل أصل فيه لأنّه هو الرّاغب والخاطب ومنه يبدأ الطّلب. (الأنديسي، 1420هـ، ص8).

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم التقديم في آيتي الزنى والسرقه

ونفهم من خلال ما تمّت الإشارة إليه سابقا بالدراسة أنّ لتقديم كلمة الزّانية في الآية الثّانية من سورة النّور أوجه بلاغية كثيرة، أدّت إلى تفاسير عديدة، فمنها ما يدلّ على كثرة ممارستها للفعل، وما ما يدلّ على عاقبة الفعل، وما يدلّ على أنّها الأصل في الفعل، وأنّ الفعل أصلا في حدّ ذاته لا يتحقّق إلّا بوجودها ولا يكون إلّا بقبولها، ويبقى تقديمها في الآية سرّاً من أسرار الخالق سبحانه وتعالى، وقد يستخرج منه المفسّرون -فيما هو آت- معان جديدة لم تذكر، أنّ معاني القرآن مفتوحة الدّلالات -كما سبقت الإشارة إلى ذلك-.

وما يمكن الاتّفاق عليه ممّا سبق، هو أنّ في تقديم كلمة (الزّانية) على الزّاني وجه من أوجه الإعجاز الكثيرة التي لا حدود لها في القرآن الكريم، وأنّ كثرة هذه التّأويلات لها دلالة على إعجاز معانيه، وانفتاحها على الدّلالات المختلفة، كما تبيّن ضعف العقل البشري على الإحاطة بمعاني القرآن الكريم من جميع الجوانب التّوحي، وهذا ما جعله نصّاً مقدّساً يعلو على جميع النّصوص، "فما أشرفه من كتاب يتضمّن صدق متحمّله، ورسالة تشتمل على قول مؤدّيها، بيّن فيه سبحانه أنّ حجّته كافية هادية، لا يحتاج مع وضوحها إلى بيّنة تعدوها، أو حجة تتلوها، وأنّ الدّهَاب عنها كالذهاب عن الضّروريات" (الباقلائي، 1971، ص3)، فهو يهتّب ويربّي النّفس، ويأسر القلب والروح بين كلماته ومعانيه، وفي ذلك جزء من إعجازه اللّغوي.

وألفاظ القرآن الكريم مرصّعة في مواضعها بدقّة عالية منقطعة النّظير، ويغلب عليها الأدب والوقار، فهي مهتّبة بعيدة عن الفحش كلّ الابتعاد، وقد وضعت الموضع الذي تقتضيه الحاجة إليها، فما تقدّم منها شريف الغاية، وما تأخّر مقصود الدّلالة، أعجزت بلاغته وفصاحته أرباب الشّعْر والبيان، وأنّ دراسة التّقديم والتّأخير والإلمام بقواعده ودقائقه من أقوى الوسائل الموصلة إلى معرفة سرّ الإعجاز في القرآن الكريم" (شيخون، دت، ص135)، فلم تقدّم

الكلمات إلّا لإصابة معان معيّنة، وهذه المعاني المستخلصة هي فتح المجال لكتب التفاسير الكثيرة.

فالقرآن الكريم كلّ متكامل ليس في إعجاز ألفاظه فقط، فحتّى جملة منسوجة نسجا محكما لا اختلاف فيه، وأسلوبه مسبوك لا يشوبه خلل، ومعانيه لا تحصرها تفاسير ولا كتب، فكلّما أحكم عليها أهل العلم من جهة انطلقت فاتحة العنان لمعان أخرى من جهة خلاف، ومكسرة قيود تلك الدّراسات لتؤكّد محدودية قدرة الإنسان أمام هذا الإعجاز الزّباني العظيم، الذي كبح جموح المتحدّين على تدنيسه، فانكسرت شوكتهم واعترفوا بأنّه أعلى من ترهّاتهم، رغم "امتيازهم بسلامة السّليقة، وسرعة البديهة، فقد عرفوا كثيرا من أصول النّقل الأدبي معرفة ناتجة عن ذوق، لذلك لمّا سمعوا القرآن الكريم يتلى عليهم ، استولى على مسامعهم" (عباس، 1991، ص29)، ولم تغن عنهم براعتهم بشيء أمام إعجازه براعته، ودقّة تصويره.

5. خاتمة:

وما نختم به كلامنا بناء على ما سبق، هو أنّه من مظاهر إعجاز القرآن الكريم أنّ العلم عنده لا يتوقف، والدّراسات لا تنتهي، فكل يوم يطالعنا أهل العلم بجديد اكتشف فيه، فهو آية الله سبحانه وتعالى لعباده، ومعجزته الخالدة التي نفى ولا تبلى، ومهما تحدّثنا عن إعجازه اللّغوي منه فقط دون سائر أنواع الإعجاز الأخرى لن نفيه حقّه، ولو ملأنا الدّواوين والمجلّدات، وما شهادة أرباب الكفر على عجزهم إلّا حجة لكلّ جاحد، وإنّ أشرنا إلى تقديم كلمة واحدة في آية من آياته أنّ فيها دلالة على سرّ من أسرار إعجازه، فكيف لنا بالقرآن كلّ؟

لقد سعينا كذلك في هذا المقال إلى تبين أنّ التّقديم والتّأخير في ألفاظ وكلمات القرآن الكريم، هو وجه من أوجه الإعجاز، وباب مفتوح الدّلالة على المعاني المختلفة والمتجدّدة، وهذا سبب من أسباب انتشار كتب التّفسير والتّأويل بعد عجز أهل العلم عن الإحاطة بها -معاني الألفاظ- من كلّ الجوانب، لأنّها وضعت بمنتهى الدّقة في الآيات التي وردت فيها، وكثيرا ما يكون للتّطوّرات العلمية الجديدة تأثير في تفسير آيات القرآن الكريم.

6. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم.
- الأندلسي أبو حيان ، البحر المحيط في التفسير. تح: صديقي محمد جميل، ج8، دار الفكر - بيروت، لبنان، 1420هـ.
- الباقلاّني، إعجاز القرآن الكريم، دار الكتب والوثائق، مصر، دط، 1971.
- الرافي مصطفى صادق ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، المكتبة العصرية، لبنان، دط، 2008.
- رحمانى السعيد، مجلّة الصّراط، عنوان المقال: الإعجاز القرآني عند الدّكتور أحمد عروة في ضوء المعارف العلمية، العدد27، يوليو2013.
- السّامرائي فاضل صالح ، أسرار البيان في التّعبير القرآني، أسرار البيان في التّعبير القرآني، محاضرة ألقاها ضمن فعاليات جائزة دبي للقرآن الكريم، عام 2002.
- السّامرائي فاضل صالح ، لمسات بيانية في نصوص التّزليل، دار عمار للنشر، الأردن، ط3، 2003ص5.
- السّامرائي فاضل صالح، معاني التّحوي، ج1، دار الفكر للطباعة والنّشر، الأردن، ط1، 2000.
- السّايس محمد علي ، تفسير آيات الأحكام. تح: عبد الحميد الهنداوي، مج2، مؤسّسة المختار، مصر، ط1، 2001.
- السيوطي جلال الدين ، الإتقان في علوم القرآن. تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسّسة الرسالة ناشرون، دمشق، سوريا، 2008، ط1.
- شيخون محمّد السّيد ، أسرار التّقديم والتّأخير، دار الهداية، مصر، دط، دت.
- الصّافي محمود ، الجدول في إعراب القرآن وصرفه وبيانه، ج1، دار الرشيد ومؤسّسة الإيمان، بيروت، لبنان، 1995، ط3.

الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم التقديم في آيتي الزنى والسرقه

- الصغير محمود أحمد، القراءات الشاذة وتوجيهها النحوي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، 1999، دط.

- عباس فضل حسن ، إعجاز القرآن الكريم، دون دار النشر، 1991، دط.

- الغزالي محمد، نحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، دار الشروق، القاهرة، مصر، 2008، ط8.

- القطان مناع ، مباحث في علوم القرآن، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، السعودية، 2000، ط3.

- لاشين عبد الفتاح ، التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني، دار المريح، الرياض، السعودية، 1980، دط.

7. ملاحق:

آية السرقه من سورة المائدة، هي قوله تعالى:

{وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ} [المائدة: 38]

آية الزنى من سورة النور، وهي قوله تعالى:

{الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي

دِينِ اللَّهِ إِنَّ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشَهِدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ

الْمُؤْمِنِينَ} [النور: 2]